ثم ما أن يقضي على اليهودي بالسرقة فلما أطلعه الله على كذب قوم طعمة عرف أنه لو وقع ذلك الأمر
لكان خطأ في نفس الأمر فأمره الله بالاستغفار لذنب فرط منه قبل النبوة وإن لم يكن له ذنب أصلا
الوجه الرابع أن درجة النبي صلى الله عليه وسلم أعلى الدرجات ومنصبه أشرف المناصب فلعلو
درجته وشرف منصبه وكمال معرفته بالله عز وجل فلا يقع منه على الخطأ وبالأحرى السهو وأمور من
أمور الدنيا فإنه مذنب بالنسبة إلى منصبه صلى الله عليه وسلم قيل حسنات الأبرار سيئات
المقربين وذلك بالنسبة إلى منازلهم ودرجاتهم والله أعلم قوله تعالى إن الله لا يحب من كان
خوانا أثيما يعني خوانا بسرقة الدرع أثيما برميه وهو بريء وإنما قال تعالى خوانا أثيما على
المبالغة لأنه تعالى علم من طعمة الإفراط في الخيانة وركوب المآثم وقيل على ذلك أنه لما أنزل فيه
القرآن لحق بمكة مرتدا عن دينه ثم عدا على الحجاج بن علاط فنقب عليه بيته فسقط عليه حجر
من الحائط فلما أصبحوا أخرجوه من مكة فلقي ركبا فعرض لهم وقال ابن سبيل ومنقطع به فحملوه
حتى جن عليه الليل عدا عليهم فسرقهم ثم انطلق فركبوا في طلبه فأدركوه فرموه بالحجارة
حتى مات ومن كانت هذه حالته كان كثير الخيانة والإثم فلذلك وصفه الله تعالى بالمبالغة
في الخيانة والإثم قال بعضهم إذا عثرت من رجل على سيئة فاعلم أن لها أخوات ويروى عن عمر
أنه أمر بقطع يد سارق فجاءت أمه تبكي وتقول هذه أول سرقة سرقها فاعف عنه يا أمير المؤمنين
فقال كذبت إن الله لا يؤاخذ عبده في أول مرة قوله عز وجل يستخفون من الناس يعني يستترون
من الناس ويريد بذلك بني ظفر بن الحرث وهم قوم طعمة بن أبيرق ولا يستخفون من الله
يعني ولا يستترون من الله ولا يستحيون منه وأصل الاستخفاء الاستتار وإنما فسر الاستخفاء
بالاستحياء على المعنى لأن الاستحياء من الناس يوجب الاستتار منهم وهو معهم يعني والله معهم
بالعلم والقدرة لا يخفى عليه شيء من حالهم لأنه تعالى لا يخفى عليه خافية وكفى بذلك زجرا للإنسان
عن ارتكاب الذنوب إذ يبيتون ما لا يرضى من القول يعني يضمرون ويقدرون ويزورون
في أذهانهم وأصل التبييت تدبير الفعل بالليل وذلك أن قوم طعمة قالوا فيما بينهم نرفع
الأمر إلى النبي صلى الله عليه وسلم فإنه يسمع قول طعمة ويقبل يمينه لأنه مسلم ولا يسمع قول
اليهودي لأنه كافر فلم يرض الله تعالى ذلك منهم وأطلع نبيه صلى الله عليه وسلم على سرهم
وما هموا وكان الله بما يعملون محيطا يعني أنه تعالى لا يخفى عليه شيء من أسرار عباده وهو
مطلع عليهم ومحيط بهم لا تخفى عليه خافية ها أنتم هؤلاء ها للتنبيه يعني يا هؤلاء الذين
هو خطاب لقوم من المؤمنين كانوا يذبون عن طعمة وعن قومه جادلتم عنهم يعني خاصمتم
عنهم بسبب أنهم كانوا يرونهم في الظاهر مسلمين وأصل الجدال شدة الفتل لأن كل واحد
من الخصمين يريد أن يفتل صاحبه عن ما هو عليه والمعنى هبوا أنكم خاصمتم وجادلتم عن
طعمة وقومه في الحياة الدنيا وقيل هو خطاب لقوم طعمة وفي قراءة ابن مسعود جادلتم
عنه والمعنى هبوا أنكم خاصمتم عن طعمة في الحياة الدنيا فمن يجادل الله عنهم يوم
القيامة يعني إذا أخذه لعذابه فهو استفهام بمعنى التوبيخ والتقريع أم من يكون عليهم
وكيلا يعني حافظا أو محاميا عنهم من بأس الله إذا نزل به قوله تعالى ومن يعمل سوءا أو يظلم
نفسه نزلت هذه الآية في ترغيب طعمة في التوبة وعرضها عليه وقيل نزلت في قومه الذين
جادلوا عنه وقيل هي عامة في كل شيء ومن قال إن خصوص السبب لا يمنع من إطلاق الحكم
ومعنى الآية ومن يعمل سوءا أي يسوء به غيره كما فعل طعمة بالسرقة من قتادة والا خص
ما يتعدى إلى الغير أو يظلم نفسه يعني فيما يختص به من الحلف الكاذب ونحو ذلك وقيل معناه
ومن يعمل سوءا أي قبيحا أو يظلم نفسه برميه البريء وقيل السوء كل ما يأثم به الإنسان

والظلم هو

والظلم هو الشرك فما دونه ثم يستغفر الله يعني من ذنوبه يجد الله غفورا رحيما وفي
هذه الآية دليل على حكمين أحدهما أن التوبة مقبولة عن جميع الذنوب الكبائر والصغائر لأن قوله
ومن يعمل سوءا أو يظلم نفسه عم الكل والحكم الثاني أن ظاهر الآية يقتضي أن مجرد الاستغفار كاف
وقال بعضهم إنه مقيد بالتوبة لأنه لا ينفع الاستغفار مع الإصرار على الذنوب ومن يكسب إثما
يعني ومن يعمل ذنبا يأثم به فإنما يكسبه على نفسه يعني إنما يعود وبال كسبه عليه والكسب عبارة
عما يفيد جر منفعة أو دفع مضرة فكأنه تعالى يقول يا أيها الإنسان إن الذنب الذي اكتسبته إنما عادت مضرته
عليك فإني منزه عن الضرر والنفع فأكثر من الاستغفار ولا تيأس من قبول التوبة فإني الغفار لمن تاب
وهذه الآية نزلت في طعمة وكان الله عليما يعني بسارق الدرع حكيما يعني إذ حكم عليه القطع
وقيل معناه عليما بما في قلب عبده عند إقدامه على التوبة حكيما تقتضي حكمته أن يتجاوز عن التائب
ويغفر له ويقبل توبته ومن يكسب خطيئة أو إثما قيل إن الخطيئة هي الصغيرة من الذنوب والإثم
هو الكبيرة وقيل الخطيئة هي الذنب المختص بفاعله والإثم المتعدي إلى الغير وقيل هنا إن الخطيئة هي
سرقة الدرع والإثم هو يمينه الكاذبة ثم يرم به بريئا أي يقذف بما جناه بريئا منه وهو نسبة السرقة
إلى اليهودي ولم يسمه فإن قلت الخطيئة والإثم اثنان فكيف وحد الضمير في قوله ثم يرم به قلت
معناه ثم يرم بأحد هذين المذكورين بريئا وقيل معناه ثم يرم بهما فاكتفى بأحدهما عن الآخر وقيل
إنه يعود الضمير إلى الإثم وحده لأنه أقرب مذكور وقيل إن الضمير يعود إلى الكسب ومعناه ثم يرم بما
كسب بريئا فقد احتمل بهتانا البهتان من البهت وهو الكذب الذي يتحير في عظمه وإثما مبينا
يعني ذنبا بينا لأنه بكسب الإثم آثم وبرميه البريء باهت فقد جمع بين الأمرين قوله عز وجل ولولا
فضل الله عليك ورحمته وهذه الآية متعلقة بقصة طعمة بن أبيرق وقومه حيث لبسوا على رسول
الله صلى الله عليه وسلم أمر صاحبهم فقوله تعالى ولولا فضل الله عليك يعني يا محمد بالنبوة ورحمته
يعني بالعصمة وما أوحى إليك من الاطلاع على أسرارهم فهو خطاب للنبي صلى الله عليه وسلم لهمت
طائفة منهم يعني من بني ظفر وهم قوم طعمة أن يضلوك يعني عن القضاء بالحق وتوخي طريق العدل وقيل
معناه يخطئوك في الحكم ويلبسوا عليك الأمر حتى تدفع عن طعمة وذلك أن قوم طعمة عرفوا أنه
سارق ثم سألوا النبي صلى الله عليه وسلم أن يدفع عنه ويبرئه عن السرقة ويرمي بها اليهودي
وما يضلون إلا أنفسهم يعني أن وبال ذلك يرجع عليهم بسبب تعاونهم على الإثم وشهادتهم
له أنه بريء فهم لما أقدموا على ذلك رجع وباله عليهم وما يضرونك من شيء يعني أنهم وإن سعوا
في إلقائك في الباطل فأنت ما وقعت فيه لأنك بنيت الأمر على ظاهر الحال وما خطر ببالك أن الأمر
على خلاف ذلك وقيل معناه وما يضرونك من شيء في المستقبل فوعده الله إدامة العصمة وأنه
لا يضره أحد وأنزل الله عليك الكتاب يعني القرآن والحكمة يعني القضاء يعني وأوجب بهما بناء
الحكم على الظاهر فكيف يضرونك بإلقائك في الشبهات وعلمك ما لم تكن تعلم يعني من أحكام الشرع
وأمور الدين وقيل علمك من علم الغيب ما لم تكن تعلم وقيل معناه وعلمك من خفيات الأمور وأطلعك
على ضمائر القلوب وعلمك أحوال المنافقين وكيدهم ما لم تكن تعلم وكان فضل الله عليك عظيما
يعني ولم يزل فضل الله عليك يا محمد عظيما فاشكره على ما أولاك من إحسانه ومن عليك بنبوته
وعلمك ما أنزل عليك من كتابه وحكمته وعصمك ممن حاول إضلالك فإن الله هو الذي تولاك بفضله
وشملك بإحسانه وكفاك غائلة من أرادك بسوء وفي هذه الآية تنبيه من الله عز وجل لنبيه محمد
صلى الله عليه وسلم على ما حباه من ألطافه وما شمله من فضله وإحسانه ليقوم بواجب حقه قوله تعالى
لا خير في كثير من نجواهم يعني من نجوى قوم طعمة وقيل هي عامة في جميع ما يتناجى الناس به والنجوى
هو السر أو في التدبير وقيل النجوى ما تفرد بتدبيره قوم سرا كان ذلك أو جهرا وناجيته ساررته

Copyright © King Saud University

Created with PDFsharp 1.2.1269-g (www.pdfsharp.com)